بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة 11-11-2011م **الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال**

سلسلة قرأتُ في كتاب

((الأعمدة السبعة للنظام الإسلامي))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدْ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله.

أرسلهُ ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته وأستفتح بالذي هو خير :

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153].

وقال سبحانه في خواتيم سورة الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ *﴾ [الشورى: 52،53].

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا**

الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) [أحمد والحاكم].

وقَالَ صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ، وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ)) [البخاري ومسلم].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الحاديةَ عشْرة في سلسلة (**قرأتُ في كتاب**)، أختار لكم فيها فوائد منثورة في كتب قرأتها أو بعضها، ليفيد المرء علماً وعملاً، عنوان خطبة اليوم:

(الأعمدة السبعة للنظام الإسلامي)

وهذا العنوان عنوان بحث مفيد، وجدته في كتاب للأستاذ **فهمي هويدي** الكاتب والمفكر الإسلامي المصري المعروف.

وعنوان الكتاب: (**الإسلام والديمقراطية**) مطبوع سنة 1993م.

يتحدث المبحث عن سبع مواصفات للدولة كما يتصورها الإسلام، رأيت فيه فائدة فأحببتُ أن أطلعكم عليه في هذه الخطبة.

يقول المؤلف: (ما هي مواصفات الدولة كما يتصورها الإسلام؟، ويجيب: نستطيع أن نحدد سبعاً من تلك المواصفات، هي:

1- **الولاية للأمة:** فهي صاحبة الاختيار، ورضاها شرط لاستمرار من يقع عليه الاختيار، فالأمة هي صاحبة الرئاسة العامة، وحدها لها حق اختيار الإمام ولها عزله، أي إنهاء العقد وفسخه، فهي المبتدئة له، وهي المشرفة عليه، وصاحبةُ الحق الأَوْلَى فيه.

2- **المجتمع مكلَّف و مسؤول**: فإقامة الدّين وعمارة الدّنيا ورعاية المصالح العامة، من مسؤولية الأمة وليس السلطةُ فقط، آيةُ ذلك أن الخطاب القرآني يتوجه بخطاب التكليف في مواضع عدّة إلى الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:1]، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:2]، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:104].

3- **الحرية حق للجميع**: حيث ممارسة الإنسان لحريته هي الوجه الآخر لعقيدة التوحيد، ونطقه بالشهادتين بمنزلة إعلان عن عبوديته لله وحده، وانعتاقِه من أي سلطان، لأي واحدٍ من الناس.

4- **المساواة بين الناس**: فالناس جميعاً لهم الحصانة والكرامة التي يقررها القرآن للإنسان، بصرف النظر عن ملته أو عِرقه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]. **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: ((أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ)) [رواه أحمد].

لقد دعا الإسلام إلى هذه المساواة قبل أربعة عشر قرناً عندما كان الناس في جزيرة العرب يُقَسمونَ إلى أحرارٍ وعبيد، وكانوا في بلاد الشام يقسمون إلى أحرار وغير أحرار:

- والأحرار طبقتان: أحرار أصلاء: هم الرومان، وأحرار غير أصلاء: هم اللاتين.
- وغير الأحرار أربعةُ أنواع: الأرقاء، والمعتقون، وأنصاف الأحرار، والأقنات التابعون للأرض.

دعا الإسلام إلى المساواة بين البشر بينما كان فيلسوف اليونان الأشهر أرسطو يسطر في كتابه (السياسة) أن الآلهة خلقت نوعين من البشر، نوع رفيع زودته بالعقل والإرادة وهم اليونان بطبيعة الحال، ونوعٌ لم تزوده الآلهة إلا بالقوى الجسمانية وما يتصل بها وهم البرابرة (غير اليونانين).

5- **الآخر المختلف له شرعيته**: فقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم توقيراً لجنازة ميت، ثمّ قيل له إنه يهودي، فرد قائلاً: أليست نفساً.

ووجه سيدنا علي رضي الله عنه رسالةً إلى واليه على مصر – مالك الأشتر– قال له فيها:(وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبةَ لهم، واللطفَ بهم، فإنهم صنفان: إما أخ لكَ في الدين، أو نظير لك في الخلق).

ومن هنا، فلا خوف على الأقليات، ولا بأس على المغايرين في الاعتقاد، في الحكم الإسلامي ما انتظموا في سلك النظام العام، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

6- **الظلم محرمٌ ومقاومته واجبةٌ**: فالظلم في المفهوم الإسلامي ليس من أكبر المنكرات فقط ولا هو مؤذن بفساد العمران وحسب، كما قال ابن خلدون، ولكنه قبل كل ذلك عدوان على حق الله، وانتهاك لقيمة العدل التي هي هدف الرسالة النبوية، **قال تعالى**: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:42]، وقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:39]، بل هناك في الإسلام تحريضٌ على مقاومة الظلم، وشرعية قانونية معترفٌ بها لتلك المقاومة.

7- **القانون فوق الجميع**: فشرعية السلطة في الدولة الإسلامية مرهونة في قيامها، وفي استمرارها بالتزامها بالعمل على إعمال النظام القانوني الإسلامي.

وفي مسألة القانون فوق الجميع أحب أن أعرض عليكم سبب نزول عشر آيات في سورة النساء مطلعها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * . . .﴾ [النساء:105-108] إلى آخر الآيات.

أورد الواحدي في كتابه سبب نزول هذه الآيات:

إن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة بن أُبيَرُق، أحدُ بني ظفر بن الحارث، سرق درعاً من جارٍ له، يقال له: قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خَرْق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود، يقال له: زيد بن السمين.

فالتُمِسَتْ الدرع عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف لهم: والله ما أخذها، وما له به من علم.

فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره. فرأينا أثر الدقيق، فلما أن حَلَف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه.

فقال: دفعها إلي طعمة بن أُبيَرُق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك.

فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلموه في ذلك، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتُضِحَ وبريء اليهودي.

فهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي حتى أنزل الله تعالى: ﴿إنا أَنزَلنا إِلَيكَ الكِتابَ بِالحَقِّ﴾ الآية كلها.

فَبَرَّأَ القرآن اليهوديَ، وأدان المسلم. إذ القانون في النظام الإسلامي فوق الجميع، حكّاماً ومحكومين.

يقول الأستاذ فهمي هويدي في كتابه:

(لقد أوجد الفقه الإسلامي فصلاً كاملاً وعضوياً بين الجهة التي تصوغ التشريع وتستنبطه، وبين السلطة السياسية التي تتولى التنفيذ والحكم، وهو فصل تميّزت به الشريعة عن النظم الديمقراطية كلها، وسبقتها بتقريره منذ أكثر من ألف عام.

لقد كان أقصى ما وصل إليه الفكر الدستوري في تجربة العقل الإنساني هو الفصل بين السلطات واعتبارُ التشريع إحدى سلطات الدولة الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وبمقتضى ذلك الفصلِ توفرت إلى درجة كبيرة ضمانةُ الحد من طغيان السلطة التنفيذية.

لكنه لا يعطي ضماناً للحد من طغيان السلطة التشريعية، خصوصاً في الحالات التي يصنع الحاكمُ القانونَ أو يصنع السلطة التي تصدر القانون.

التصور الإسلامي يحل ذلك الإشكال، ويقدم صيغة تحمي الأمة من استبداد السلطتين التنفيذية والتشريعية، حين يرتفع بالقانون فوق الهوى والغرض، ليكون التشريع من عند الله وحده) .

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأت في سمات الرؤية الإسلامية للنظام السياسي:

الولاية للأمة، المجتمع مكلف ومسؤول، الحرية حق للجميع، المساواة بين الناس، الآخر المختلف بين الناس له شرعيته ، الظلم محرمٌ ومقاومته واجبةٌ، القانون فوق الجميع.

أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**يقول الله عز وجل: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.**

وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)). [ابن مردويه وابن كثير]

و الحمد لله رب العالمين